من الخاسوت إلى الغويم

شعب الرب

أشرت في نهاية الفصل الأول إلى الاختلاف الجذري التاريخي والروحي بين عصري إبراهيم الخليل وموسى (عليهما السلام)، واعتبار العصر الإبراهيمي عصراً كنعانياً آرامياً مرتبطاً بفلسطين والجزيرة العربية وقبائلها الأم، ولا علاقة له بعصر موسى المصري الأخناتوني بعقيدته وانتمائه، وتفصل بين العصرين حقبة من الزمن امتدت لما يقارب ستمئة عام على الأقل.

في هذا الفصل سنتتبع أصول الديانات والمعتقدات المصرية لمصر الفرعونية، بمقارنتها بمعتقدات وأسس دعوات الحكاية الكتابية (بعهديها القديم والجديد)، لنرى أين يلتقيان معها، وكيف ومتى يفترقان عنها، لنصل إلى نتيجة مفادها أن جذور الرواية الكتابية وعقيدتها ونمطها مأخوذة أساساً من الديانات والعقائد المصرية القديمة وتقاليدها وثقافتها وأصولها!

قد نصل إلى نتيجة تشير إلى أن هذا الافتراق ربما حصل بعد مقتل النبي موسى (صلى الله علبه وسلم)، واستمرت بعض أوجه الشبه ما بينها، والتي لا تزال باقية إلى اليوم، واستمر تبني بعض هذه الأصول كمبدأ موروث يتفق مع مصالح وغايات وأهداف لا تزال قيد التحقق والمطالبة. هذه المصالح والغايات الضيقة الذاتية لا علاقة لها بالتوحيد والهداية والدعوة الإلهية التي تبناها موسى ودعا إليها. يقول سيمسون نايوفيتس في بحثه (مصر أصل الشجرة):

(كان المصريون في العصور القديمة على وعي شديد بهويتهم الدينية والسياسية، والثقافية، والعرقية المحددة؛ وكانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم ليسوا آسيويين، ولا أفريقيين، ولا نوبيين، ولا قريبين من التنحو (الليبيين) البغيضين، الذين كانوا يعتبرونهم همجاً»... ويضيف: «طور مثال آخر مشهور للفصل العرقي الذي كان المصريون يشعرون به، فيما يتعلق بالنوبيين والبانتو والآسيويين على جداريات معبد رمسيس الثاني قرابة (1279-1213ق.م) المعروف

بأبي سنبل. وهنا نرى تصوير الأسرى النوبيين والبانتو[1] والعرب الآسيويين والليبيين الذين تساء معاملتهم، وتعرض الفروق فيما بينهم وبين النمط المصري بطرائق تحط من قدرهم»[2].

إن الاقتباس للنمط المصري العرقي، وبغض النظر عن المعتقد الديني الذي يوضع أحياناً كمبرر، يظهر دائماً من خلال الرواية التوراتية (كعذر أقبح من ذنب)، وتنسب مراميه دائماً للأوامر الإلهية. مارس الفراعنة هذا التمييز، لكن دون أن ينسبوه للفعل الإلهي، وهو الفعل ذاته الذي مارسه وتغنى به العبرانيون العابرون تحت مسمى (بني إسراءيل) من البدو المتوحشين الذين دخلوا على الشعوب الأخرى غير العبرية، ومارسوا بحقها التمييز والتطهير العرقي والتحريم بالقتل والإبادة، حسب ما ورد في الرواية التوراتية.

ربما تكون هذه المفاهيم موروثة بشقها القبيح العنصري عن العنجهية والثقافة الفرعونية القديمة لما قبل ثورة العمارنة الأخناتونية التوحيدية وبعد الانقلاب عليها، لكن تلك الثقافة الاستعلائية الفرعونية لم تصل عرقيتها وتمييزها إلى المستوى اللاأخلاقي والعنصري الذي وصلت إليه الممارسات العبرانية التي دعت إلى إبادة الشعوب الأخرى، ولا تقارن بما مارسه الفرعون بحق المصريين والعبرانيين والكنعانيين، الذين اعتنقوا التوحيدية، حيث فُرِضت عليهم العبودية والسخرة والعمل في المقالع عقاباً لهم لأنهم اعتنقوا الديانة الآتونية، وقتل ذكورهم واستحياء الإناث منهم، كما تذكر القصة القرآنية: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[3].

لا تجيز رسالة موسى أن يتحول المضطهدون إلى قتلة وسفاحين وغزاة تحت ادّعاءات أوامر الرب والوحي الإلهي.

قام الملك أمنحوتب الرابع (أخناتون) بحركة الإصلاح الديني بالتحول عن عبادة الآلهة المتعددة إلى عبادة الإله الواحد خالق الكون، وكان النبي موسى (صلى الله عليه وسلم) من المتبنين لعقيدة أخناتون التوحيدية الثورية المصرية. لكن موسى (صلى الله عليه وسلم) لم يستطع ترسيخ عقيدة التوحيد والوصايا العشر الإلهية (لا تقتل لا تسرق ...إلخ) داخل العقيدة العبرانية

١- البانتو خليط من شعوب وسط وجنوب أفريقيا.

٢- سيمسون نايوفتس (مصر أصل الشجرة) ج1 ص 109-110.

٣- القرآن الكريم سورة القصص الآية 4.

وبني إسراءيل، بل إن محاولاته عرضته للإيذاء والتكذيب، وربما القتل أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

والتساؤل هنا ما هي الدوافع النفسية الدفينة التي استولدت هذه العنصرية والفوقية التي تحكم الحكاية الكتابية، وبتعبير أدق: ما هو الدافع الذي دفع بالكتبة والأحبار إلى تضمين ما عرفوه من الحق، والإضافة إليه داخل نص الرواية، لتصبح أهدافاً مشكوكاً بها لمبادئ شاذة لا أخلاقية لا تخفى على القارئ والباحث داخل النص الكتابي وفي متن الرواية، لا سيما حين تواجه هذه الرواية شعوباً وحضارات لها تاريخها وإنجازاتها المدنية المتطورة، وتأمر بإبادتها وحرقها وتدمير منجزاتها، فهي تعبر بذلك عن الدونية والشعور النفسي بالنقص والتخلف، والرغبة الدفينة بالانتقام من كل ما هو متقدم ومتطور، خلافاً لما كانت عليه الحضارة المصرية.

هذه العنصرية التي تبناها أبناء يعقوب (ودائماً أتحدث عما جاء في متن الرواية التوراتية)، ومعهم الجماعات البدائية العبرية التي تضمنها سفر التكوين بشكل تأسيسي، ومهد لما بعده في الأسفار الأخرى، استخدم بشكل بارع ومتقن حبكة روائية أدبية، حاولت إضفاء الصبغة الإلهية على النص، كما نجد في قصة أبناء يعقوب قبل رحيلهم إلى دلتا النيل وكيدهم لأخيهم يوسف: قصة لا تخلو من الغدر والمكر. وإن عبَّرت عن شيء، فإنما تعبر عن دفائن النفسية العبرانية المكبوتة والحاقدة في آن واحد. تقول الرواية وبحسب التوراة (العهد القديم) إن ملك وأهل شكيم (نابلس اليوم) يستضيفون غرباء مهاجرين بكرم وترحاب واضح لا تخفيه الرواية نفسها، وبينما دِيْنة ابنة يعقوب تطوف بالمدينة الغريبة عنها، يعترض طريقها شكيم بن حمور ملك المدينة ويغتصبها. يعلم يعقوب وبنوه (شمعون و لاوي) بالأمر فيغضبون من الفعلة، لكن الملك حمور وشكيم ابنه يتقدمان لخطبتها ويقدمان خطاباً أخلاقياً رائعاً إلى يعقوب وبنيه تودداً وتقرباً: (وَقَالَ لَهُمْ حَمُورُ: شَكِيمُ ابْنِي قَدْ تَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِابْنَتِكُمْ. أَعْطُوهُ إِيَّاهَا زَوْجَةً ۞وَصَاهِرُونَا. تُعْطُونَنَا بَنَاتِكُمْ وَتَأْخُذُونَ لَكُمْ بَنَاتِنَا ۞وَتَسْكُنُونَ مَعَنَا وَتَكُونُ الأَرْضُ قُدَّامَكُمُ. اسْكُنُوا وَاتَّجِرُوا فِيهَا وَتَمَلَّكُوا بِهَا». ۞ثُمَّ قَالَ شَكِيمُ لأَبِيهَا وَلإِخْوَتِهَا: «دَعُونِي أَجِدْ نِعْمَةً فِي أَعْيُنِكُمْ. فَالَّذِي تَقُولُونَ لِي أُعْطِي. ۞كَثِّرُوا عَلَيَّ جِدّاً مَهْراً وَعَطِيَّةً فَأُعْطِيَ كَمَا تَقُولُونَ لِي. وَأَعْطُونِي الْفَتَاةَ زَوْجَةً»)[2].

يطلب يعقوب و شمعون و لاوي من شكيم وجماعته أن يختتنوا، حسب عاداتهم. يقوم الملك بأمر الجميع بالختان، فيختتن ذكور المدينة كلهم. وبينما القوم

١- القرآن الكريم سورة الصف الآية 5.

٢- العهد القديم سفر التكوين 34: 8-12.

في وجعهم من اختتانهم.. أترك السرد للرواية التوراتية، حيث تذكر تحت عنوان (انتقام شمعون و لاوي): (۞فَحَدَثَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ إِذْ كَانُوا مُتَوَجِّعِينَ أَنَّ ابْنَيْ يَعْقُوبَ شِمْعُونَ وَلاَوِيَ أَخَوَيْ دِينَةَ أَخَذَا كُلٌّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ وَأَتَيَا عَلَى الْمَدِينَةِ بِأَمْنٍ وَقَتَلاَ كُلَّ ذَكَرٍ. ۞وَقَتَلاَ حَمُورَ وَشَكِيمَ ابْنَهُ بِحَدِّ السَّيْفِ وَأَخَذَا دِينَةَ مِنْ بَيْتِ شَكِيمَ وَخَرَجَا. ۞ثُمَّ أَتَى بَنُو يَعْقُوبَ عَلَى الْقَتْلَى وَنَهَبُوا الْمَدِينَةَ لأَنَّهُمْ نَجَّسُوا أُخْتَهُمْ. ۞غَنَمَهُمْ وَبَقَرَهُمْ وَحَمِيرَهُمْ وَكُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ وَمَا فِي الْحَقْلِ أَخَذُوهُ. ۞وَسَبُوا وَنَهَبُوا كُلَّ ثَرْوَتِهِمْ وَكُلَّ أَطْفَالِهِمْ وَنِسَاءَهُمْ وَكُلَّ مَا فِي الْبُيُوتِ)[1].

القصة بذاتها تحمل معاني الغدر والخديعة والمكر واغتصاب الحقوق، وتؤسس لفكر وثقافة عنصريين يبرران حق السلب والنهب والإبادة ويجعلان منها حقاً مكتسباً لبني إسراءيل. وفي مفارقة لافتة وردت في الإصحاح اللاحق مباشرة: (۞ثُمَّ رَحَلَ إِسْرَائِيلُ وَنَصَبَ خَيْمَتَهُ وَرَاءَ مَجْدَلَ عِدْرٍ. ۞وَحَدَثَ إِذْ كَانَ إِسْرَائِيلُ سَاكِناً فِي تِلْكَ الأَرْضِ أَنَّ رَأُوبَيْنَ ذَهَبَ وَاضْطَجَعَ مَعَ بِلْهَةَ سُرِّيَّةِ أَبِيهِ. وَسَمِعَ إِسْرَائِيلُ...)[2].

لا بد هنا من المقارنة بين الانتقام الرهيب لدينة ابنة يعقوب وبين صمت يعقوب على اغتصاب زوجته سُرِّيته الثالثة خادمة زوجته ليئة من قبل ابنه رَأوبين من زوجته الأخرى (الذي اغتصب زوجة والده يعقوب)، وكيف صمتت هنا الرواية أيضاً، فالشرف فيها موضع انتقاء وغايات لا علاقة لها بالتوحيد والنبوة، مع شكوكي الكبيرة بصحة هذه الرواية من أن تكون قد حصلت أو أن يكون الوحي الإلهي له أي علاقة بها!

الهدف هنا تأسيسي لما بعده، وما قصة يوسف وكيد إخوته له وبيعه أو محاولة قتله إلا واحدة من الأمثلة الكثيرة الدالة على طموح وجنوح القبيلة العبرانية لتأسيس شعب وقومية وديانة خاصة لا علاقة لها بالتوحيدية الموسوية والديانة الهدائية الأممية المرتبطة بالإله الواحد رب العالمين جميعاً. هذا المعتقد الخاص المغلق سوف يطيح بكل مفاهيم الخير والحق والعدالة والمساواة والأخلاق ونبذ العبودية التي جاء بها النبي موسى وديانته التوحيدية، ولا بأس أن تنسب كل التصرفات الشاذة العدوانية والمخالفة للوصايا وكتاب القانون إلى الإرادة الإلهية تحت مقولة (هكذا قال الرب)، لا سيما في الحكاية التأسيسية لفصول الكتاب الأخرى: أسطورة (إسحق وعيسو ويعقوب ورفقة)، والتي هي أقرب إلى قصص الخيال وحكايات العجائز الأسطورية.

١- العهد القديم سفر التكوين 34: 25-29.
٢- العهد القديم التكوين 35: 21-22.

تقول القصة الكتابية إن يعقوب أخذ البركة من أبيه إسحق بوصفه الابن عيسو البكر بانتحال شخصية عيسو بالكذب على أبيه إسحق مشتركاً مع والدته رفقة، التي رتبت الخديعة لزوجها إسحق[1] (وسوف يكلمها الرب لاحقاً ويباركها)، كما سنرى، وبحجبها حق البكورية لابنها عيسو كونه ولد إسحق البكر، وهنا تكرار (للرواية المدعاة) ما بين سارة ورفقة بحجب بكورية إسماعيل (صلى الله علبه وسلم) الولد البكر لإبراهيم أبيه[2].

تقول الأسطورة الكتابية: (۞فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: «مَنْ أَنْتَ؟» فَقَالَ: «أَنَا ابْنُكَ بِكْرُكَ عِيسُو». ۞فَارْتَعَدَ إِسْحَاقُ ارْتِعَاداً عَظِيماً جِدّاً. وَقَالَ: «فَمَنْ هُوَ الَّذِي اصْطَادَ صَيْداً وَأَتَى بِهِ إِلَيَّ فَأَكَلْتُ مِنَ الْكُلِّ قَبْلَ أَنْ تَجِيءَ وَبَارَكْتُهُ؟ نَعَمْ وَيَكُونُ مُبَارَكاً!» ۞فَعِنْدَمَا سَمِعَ عِيسُو كَلاَمَ أَبِيهِ صَرَخَ صَرْخَةً عَظِيمَةً وَمُرَّةً جِدّاً وَقَالَ لأَبِيهِ: «بَارِكْنِي أَنَا أَيْضاً يَا أَبِي!» ۞فَقَالَ: «قَدْ جَاءَ أَخُوكَ بِمَكْرٍ وَأَخَذَ بَرَكَتَكَ». ۞فَقَالَ: «أَلاَ إِنَّ اسْمَهُ دُعِيَ يَعْقُوبَ فَقَدْ تَعَقَّبَنِي الْآنَ مَرَّتَيْنِ! أَخَذَ بَكُورِيَّتِي وَهُوَذَا الْآنَ قَدْ أَخَذَ بَرَكَتِي». ثُمَّ قَالَ: «أَمَا أَبْقَيْتَ لِي بَرَكَةً؟» ۞فَقَالَ إِسْحَاقُ لِعِيسُو: «إِنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ سَيِّداً لَكَ وَدَفَعْتُ إِلَيْهِ جَمِيعَ إِخْوَتِهِ عَبِيداً وَعَضَدْتُهُ بِحِنْطَةٍ وَخَمْرٍ. فَمَاذَا أَصْنَعُ إِلَيْكَ يَا ابْنِي؟» ۞فَقَالَ عِيسُو لأَبِيهِ: «أَلَكَ بَرَكَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَطْ يَا أَبِي؟ بَارِكْنِي أَنَا أَيْضاً يَا أَبِي!» وَرَفَعَ عِيسُو صَوْتَهُ وَبَكَى. ۞فَأَجَابَ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: «هُوَذَا بِلاَ دَسَمِ الأَرْضِ يَكُونُ مَسْكَنُكَ وَبِلاَ نَدَى السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ. ۞وَبِسَيْفِكَ تَعِيشُ وَلأَخِيكَ تُسْتَعْبَدُ. وَلَكِنْ يَكُونُ حِينَمَا تَجْمَحُ أَنَّكَ تُكَسِّرُ نِيرَهُ عَنْ عُنُقِكَ»)[3].

من الواضح جداً هذا التشابه والتبني ضمن الرواية التوراتية لعمليات الإقصاء (للولد البكر) بسرد روايات متشابهة في التبريرات والأعذار المختلفة،

١- أيضاً سارة زوجة إبراهيم كانت عاقراً، كما زوجة إسحق (رفقة). وتكرر رواية إقصاء إسماعيل (عليه السلام).

٢- عيسو الولد البكر لـ إسحق تزوج من إحدى بنات عمه إسماعيل. تقول التوراة إن إسحق شاخ وكلت عيناه، فطلب من زوجته رفقة أن يصطاد له ولده البكر عيسو صيداً ليأكل من يده ويباركه، وكان عيسو كثيف الشعر ويعقوب أملسه، فذبحت له جدي ماعز وألبست جلده إلى يعقوب ليقدم إلى أبيه الأعمى على أنه عيسو ليباركه. تم ذلك بالخديعة والمكر ومعرفة رفقة.

٣- العهد القديم التكوين 27: 32-40.

وفي حبكات لا تخلو من الانتحال والتبرير غير المقنع، والكذب[1]، فإقصاء إسماعيل الولد البكر لإبراهيم عن البكورية والرياسة يوازي تماماً إقصاء عيسو بكر إسحق عن البكورية ومنحه البركة للولد الأصغر يعقوب. هذه القصص المدّعاة تحمل في ثناياها تعبيراً واضحاً عن العقلية البدائية المتوحشة التي تنتمي إلى بدايات عرقية متعلقة بتكوين القبيلة العبرية المرتبطة بالروايات والأساطير القديمة، والتي لا علاقة لها بالتوحيد وبما نحن بصدده في بحثنا هذا.

ويعبر سيغموند فرويد عن ذلك في كتابه (موسى والتوحيد)[2]، وتحت عبارة (التطبيق) بالقول: (يبدو هذا التاريخ وبالطريقة التي نسرده بها في منتهى التكثيف، فكان ما اقتضى سنوات وسنوات لكي يحدث ويتم، وكان ما تكرر بلا انقطاع لم يحدث في الواقع إلا مرة واحدة يتيمة، فقد كان الذكر ذو البأس والقوة، سيد العشيرة قاطبة ووالدها، يحوز حسبما يحلو له، وبفظاظة وشراسة، سلطاناً لا يحده أحد. وكانت الإناث كافة رهن أمره: نساء عشيرته وبناتها، كذلك النساء والبنات السبايا من العشائر الأخرى. وكان قدر الأبناء قاسياً، فقد كانوا يقتلون أو يخصون أو يطردون إذا ما أثاروا ذات يوم غيرة الأب. وكانوا يجدون أنفسهم مكرهين على العيش في جماعات صغيرة، ولا يعرفون من سبيل إلى اقتناء النساء وحيازتهن غير سبيل الخطف والسبي. وكان يحدث أن يتوصل بعضهم إلى أن يخلق لنفسه مركزاً يضاهي مركز الأب في العشيرة البدائية. أما الأبناء الأصغر سناً فقد كانوا يتمتعون - بالطبع - بوضع ممتاز، إذ كان حب والدتهم وسن والدهم يوفران لهم الرعاية الاجتماعية والحماية. ومن هنا كان حظهم أكبر في أن يخلفوا الأب. وفي مستطاعنا على ما يبدو أن نجد في عدد كبير من الخرافات والأساطير آثاراً وبقايا من طرد الابن البكر وإيثار الابن الأصغر).

لا زلنا في الاتجاه التأسيسي المنهجي المبرمج لما بعده، الذي سوف يؤدي إلى إقصاء شعوب وأمم وسلب أراضيها وممتلكاتها واستعبادها، ونقتبس من الرواية الكتابية الإصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين، المؤسس لقبول الخديعة والكذب والمكر واغتصاب الحقوق، ولو تطلب الأمر تحقيقه على يد الأنبياء! (۞وَكَانَ إِسْحَاقُ ابْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمَّا اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ زَوْجَةً رِفْقَةَ بِنْتَ

١- لنقارن بين كذب يعقوب وأمه رفقة والاحتيال والمكر بحق الزوج إسحق ضمن القصة التوراتية وبين ما حصل من كذب وتضليل لبوش وبلير التوراتيين فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل في تبرير الغزو والاحتلال للعراق. وكيف برر الصهيوني بوش الكذب بقوله إن الرب أمرني أن أحتل أفغانستان والعراق.

٢- فرويد (موسى والتوحيد): ص 112-113.

بَتُوئِيلَ الأَرَامِيِّ أُخْتَ لاَبَانَ الأَرَامِيِّ مِنْ فَدَّانَ أَرَامَ. ۞وَصَلَّى إِسْحَاقُ إِلَى الرَّبِّ لأَجْلِ امْرَأَتِهِ لأَنَّهَا كَانَتْ عَاقِراً(١) فَاسْتَجَابَ لَهُ الرَّبُّ فَحَبِلَتْ رِفْقَةُ امْرَأَتُهُ. ۞وَتَزَاحَمَ الْوَلَدَانِ فِي بَطْنِهَا فَقَالَتْ: «إِنْ كَانَ هَكَذَا فَلِمَاذَا أَنَا؟» فَمَضَتْ لِتَسْأَلَ الرَّبَّ. ۞فَقَالَ لَهَا الرَّبُّ: «فِي بَطْنِكِ أُمَّتَانِ وَمِنْ أَحْشَائِكِ يَفْتَرِقُ شَعْبَانِ: شَعْبٌ يَقْوَى عَلَى شَعْبٍ وَكَبِيرٌ يُسْتَعْبَدُ لِصَغِيرٍ» ۞فَلَمَّا كَمُلَتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ إِذَا فِي بَطْنِهَا تَوْأَمَانِ. ۞فَخَرَجَ الأَوَّلُ أَحْمَرَ كُلُّهُ كَفَرْوَةِ شَعْرٍ فَدَعُوا اسْمَهُ عِيسُوَ. ۞وَبَعْدَ ذَلِكَ خَرَجَ أَخُوهُ وَيَدُهُ قَابِضَةٌ بِعَقِبِ عِيسُو فَدُعِيَ اسْمُهُ يَعْقُوبَ. وَكَانَ إِسْحَاقُ ابْنَ سِتِّينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْهُمَا)(٢)(٣). إنَّ تأسيس القاعدة الفقهية المؤسسة لما بعدها من شروط ومتممات تبدو واضحة للعيان من خلال ما استعرضناه في قصة يعقوب وعيسو، وادّعاء قول الرب: (شَعْبٌ يَقْوَى عَلَى شَعْبٍ وَكَبِيرٌ يُسْتَعْبَدُ لِصَغِيرٍ)، وما تلاه من قصة ابنة يعقوب وأهل مدينة شكيم (نابلس)، واعتماد المكر والخديعة والكذب كمسوغ يبرر تطبيقها على الشعوب الأخرى (الغويم والغويم فقط).

ويبدو هنا النص المنحول الذي أسس لمفهوم (شعب الرب وأرض الميعاد)، هذه المشيئة الإلهية المدعاة التي يجب أن تخضع لها الشعوب الأخرى المستضعفة تحت شعارات وتفسيرات لاهوتية تطورت وترسخت غربياً وعُبِّرَ عنها في الثقافة الغربية بادّعاء (حتمية زوال الحضارات البربرية الآثمة ذات الشرور)، والتي سوف تحل مكانها الحضارات التوراتية اللطيفة المتمدنة والأخلاقية مع ما يحمله هذا النظام الاستعماري الصهيوني الإمبريالي لهذه الشعوب من مدنية وحضارة ومكاسب. وهذا ما بُرِّرَ له داخل الفكر التوراتي الاستعلائي: المذابح والإبادة والاستيطان، والأعمال التي قام بها بنو إسراءيل أثناء غزوهم لكنعان أرض الفلسطينيين، وعبر إيمانهم

١- تقول الرواية الكتابية أن سارة أيضاً كانت عاقراً بالإضافة إلى كنتها رفقة.

٢- العهد القديم سفر التكوين 25: 20-26.

٣- عيسو بكر إسحق كان متزوجاً من ابنة عمه إسماعيل العربي وفي حالة بكوريته ستنتقل البركة والبكورية إلى العرب كون القبيلة العبرية تعتبر النسب للأم بخلاف المسيحية والإسلام، فكان لا بد من إقصاء العرب عن الوراثة النبوية والبركة عبر خديعة لـ إسحق ما لبث أن تقبلها بخلاف أخلاق الأنبياء، بل نسب إليه أنه جعل من ابنه البكر المظلوم والمضطهد من قبل أخيه يعقوب عبداً وبعيداً عن خير الأرض ومساكنها، وهذا يثير الشك والريبة حول الرواية التوراتية وصحتها.

برواية (الكتاب المقدس)، بل إن هذا المعتقد العنصري شكل أساساً وتبريراً لغزو القارة الأمريكية والأسترالية واستيطانها وإبادة سكانها الأصليين واستبعاد من بقي منهم على قيد الحياة، وغزو آسيا وأفريقيا ونهب خيراتها واستعباد شعوبها المشابه، من حيث النتيجة، لما يحدث الآن في فلسطين والعراق وأفغانستان ولبنان والسودان والصومال، وغيرها.

فالقول: (وَبِسَيْفِكَ تَعِيشُ وَلأَخِيكَ تُسْتَعْبَدُ. وَلَكِنْ يَكُونُ حِينَمَا تَجْمَحُ أَنَّكَ تُكَسِّرُ نِيرَهُ عَنْ عُنُقِكَ)[1] ينفي ويلغي نهائياً ما جاء في متن القصة التوراتية من الوصايا العشر، ولا يعير وزناً لقيم الخير والأخلاق وميزان العدل والحقوق والحرية، ويطيح بكل ما هو إنساني وحضاري، لأنه يُغلبُ منطق القوة الطاغية ويؤسس لشريعة الغاب!

وعلى الرغم من شذوذ هذا القول وهمجيته يعتد به كشريعة للنبي موسى داخل (الكتاب المقدس)، وينسب إليه على أنه كلمة الله المقدسة!

ولعل ما ورد على لسان النبي هوشع في رواية الكتاب العبري المقدس عن بطولات يعقوب ومآثره العظيمة ما يؤكد التعاضد والترابط بين الكتبة الذين انكبوا على إعادة نسخ الرواية في أزمان مختلفة وبعيدة عن تواريخ وقوعها، وبعد وقوع أحداثها بفترات زمنية طويلة، وتوقع حدوث أحداث أخرى أو العمل على إحداثها، لتتم خدمة الأحداث اللاحقة من خلال الحذف والوصل والتحريف والتأهيل المسبق. ونقتبس من سفر هوشع: (۞فِي الْبَطْنِ قَبَضَ بِعَقِبِ أَخِيهِ وَبِقُوَّتِهِ جَاهَدَ مَعَ اللَّهِ. ۞جَاهَدَ مَعَ الْمَلاَكِ وَغَلَبَ. بَكَى وَاسْتَرْحَمَهُ. وَجَدَهُ فِي بَيْتِ إِيلَ وَهُنَاكَ تَكَلَّمَ مَعَنَا. ۞وَالرَّبُّ إِلَهُ الْجُنُودِ يَهْوَهُ اسْمُهُ. ۞وَأَنْتَ فَارْجِعْ إِلَى إِلَهِكَ. احْفَظِ الرَّحْمَةَ وَالْحَقَّ وَانْتَظِرْ إِلَهَكَ دَائِماً)[2][3].

سفر هوشع من الأسفار التي ألحقت بكتاب التوراة وشكلت (العهد القديم)، ولا علاقة لهذه الأسفار بكتاب موسى. وينتمي هذا السفر إلى أسفار الأنبياء المتأخرين، وكتب مع أسفار أخرى بعد أكثر من خمسمئة عام على وفاة النبي موسى تقريباً، وبعد وفاة النبي سليمان (صلى الله عليه وسلم). ويبدو واضحاً

١- العهد القديم سفر التكوين 27: 40.

٢- العهد القديم سفر هوشع 12: 3-6.

٣- قصة مصارعة يعقوب للإله راجع العهد القديم سفر التكوين 32: 24-31. ويلاحظ جلياً من النصوص المضافة للعهد القديم التركيز على عبارة (رب الجنود) التي وردت في سفر زكريا وحده، ومن خلال اثنين وعشرين صفحة من الإصحاح الأول إلى الإصحاح الرابع عشر والأخير (رب الجنود)، خمسين مرة في إشارة واضحة إلى تبني الحروب والعدوان والسطو بالقوة والاغتصاب بالعنف، وبشكل يبدو فيه الإله الخاص مقاتلاً دائماً وعدوانياً.

ما أدخله الكتبة من تعديل وتطوير فيه على الرواية الأولى الواردة في سفر التكوين (صارع الله) إلى (صارع ملاكاً) على أمل منهم أن تكون الخرافة أكثر منطقية وقبولاً يمكنهم من تسويق رواية العهد القديم وجعلها مواكبة للمعرفة والتطور والتحديث.

على الرغم من ذلك لم يستطع الكتبة إخفاء الطابع الحربي والنهج العدواني الذي يعتبر أساس هذه الرواية (رب القوات لقبه). في سفر التكوين يصارع يعقوب إلهاً، يحمل اسم (أيل) من حيث العصر والثقافة الكنعانية والإبراهيمية الآرامية. وفي الممارسة، فإن ذلك الإله ينتمي بمواصفاته إلى (يهوه) الإله القبلي، الذي لا يظهر إلا ليلاً ويخشى النور والفجر، يصارع، وبقوله ليعقوب (وَقَالَ: «أَطْلِقْنِي لأَنَّهُ قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ». فَقَالَ: «لاَ أُطْلِقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي)[1]، يتوسل كي يطلقه يعقوب الذي غلبه (بكى وتضرع)، وخلع حق فخذ يعقوب فأصبح به عرجة[2]. مُنِحَ يعقوب هنا اسم خادم الإله الواحد (أيل) (إسراءيل)، لكن من هو الذي ادّعى منحه لقب المصارع (يهوه). يبدو هذا الادّعاء (خرافياً)، فالفارق بين عقلية القرن السابع عشر قبل الميلاد وعقلية القرن السابع قبل الميلاد كبير، لا بد إذاً من التعديل، وهذه المرة على لسان النبي هوشع المتأخر (صارع الله، صارع ملاكاً فغلبه وبكى وتضرع) يلاحظ الإصرار على ذكر المصارعة مع الله، ثم تحويلها إلى صراع مع ملاك يتضرع ويبكي؛ إنه ادّعاء وإضافة أقرب إلى ذهن المتلقي. تعديل تسوق به الرواية، مع الإشارة إلى أن يعقوب أخذ مكان أخيه من البطن، تسويقاً للقوة التي غُلِبَ فيها الله، حيث بكى الله. ولا تخفى دعوات الحرب والسطوة بوصف الإله برب الجنود؟[3]

١- العهد القديم سفر التكوين 32: 26.

٢- كان يعقوب يعاني من مرض عرق النسا، الذي سبب له عرجة، فنذر لله إن شفي من مرضه أن يصوم عن أحب الطعام إليه، وكان هذا الطعام المفضل هو لحم الإبل ولا علاقة للمصارعة المدعاة مع الإله، وقد بين القرآن الكريم ذلك.

٣- لقد أسست هذه الرواية التي دسها الكتبة إلى مرحلة بعدها في عصر (الأنبياء أو الملوك المتأخرين)، ضمن التبريرات الواهية والعنصرية، وتحديداً في سفر العهد القديم الأخير (ملاخي) (۞[أَحْبَبْتُكُمْ قَالَ الرَّبُّ]. وَقُلْتُمْ: [بِمَا أَحْبَبْتَنَا؟] أَلَيْسَ عِيسُو أَخاً لِيَعْقُوبَ يَقُولُ الرَّبُّ وَأَحْبَبْتُ يَعْقُوبَ

لم يتمكن الكتبة بهذا التعديل من إخفاء الثقافة الكنعانية عندما كتبوا بيت (إيل)، كما لم يخفِ التعديل ذكر إله (القوات) الرب لقبه، يهوه يقود القوات الإسراءيلية في غزوها لكنعان ويقتل أكثر من مئة وخمسة وثمانين ألفاً من جيش آشور (وَكَانَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَنَّ مَلاَكَ الرَّبِّ خَرَجَ وَضَرَبَ مِنْ جَيْشِ أَشُّورَ مِئَةً أَلْفٍ وَخَمْسَةً وَثَمَانِينَ أَلْفاً. وَلَمَّا بَكَّرُوا صَبَاحاً إِذَا هُمْ جَمِيعاً جُثَثٌ مَيِّتَةٌ)[1].

الإله يهوه المحارب إله القوات هو الإله المتبنى في أرض المديانيين، وهو إله البراكين والظلام والغضب، وطوّر اسمه في العهد القديم لاحقاً ليكون (الرب)، ومع ذلك يعتمد الكُتَّاب اللاهوتيون اسم يهوه (بوصف الرب) دون تمييز.

يذكر الكاتب سيمسون نايوفيتس في إشارة لافتة إلى المبادئ والقيم التي استقاها العبرانيون من التقاليد المصرية قبل ثورة وديانة أخناتون التوحيدية، والتي استمرت لما بعده، ولما بعد الخروج أيضاً.

(كان المصطلح المتصل (بجت)[2]. وكثيراً ما كان يستخدم عوضاً عنه الـ (الخاسوت) (البلاد الأجنبية)، وهو ما كانت تسمى به البلدان الآسيوية عادةً، ولكنه كثيراً ما كان يشمل البلدان الأفريقية كذلك. وعادةً ما كان ينظر إلى أي شخص في (الخاسوت) على أنه (خفتي) أي عدو، و (سبي) أي متمرد[3]، وربما كان من السهل أن نفهم الدلالات السيئة لاصطلاح (خاسوت) بالإشارة إلى علاقته بالمصطلح العبراني اللاحق (جويم - غويم)، أي الشعوب غير العبرانية أو (الأميون)، وهو الاصطلاح الذي ربما أوصى به مبدأ (خاسوت) المصري. واستخدم المسيحيون الأوائل بدورهم اصطلاح (الوثنيين) لوصف غير المسيحيين، وبالطريقة الازدرائية نفسها التي استخدم فيها اليهود «جويم» والمصريون «الخاسوت»)[4].

لم ينتهِ وصف اليهود للغير (بالغويم)، على الرغم من انتهاء صلاحية هذا المبدأ باعتناق الأمم غير العبرانية لليهودية كديانة، وفي مواطنهم المختلفة حول العالم.

أما في مصر، فقد بدأ هذا الفكر التمييزي والاستعلائي بالتغير والانكفاء تدريجياً. وفي زمن تحتمس الأول الذي استطاع الوصول بجيوشه المصرية إلى

۞وَأَبْغَضْتُ عِيسُوَ وَجَعَلْتُ جِبَالَهُ خَرَاباً وَمِيرَاثَهُ لِذِئَابِ الْبَرِّيَّةِ؟) العهد القديم سفر ملاخي 1: 2-3.

١- العهد القديم سفر الملوك الثاني 19: 35.

٢- (المقصود بـ «بجت» الأقواس التسعة. ومنهم: النوبيين؛ التنحو (الليبيين)؛ الشاسو: هم البدو الرحل سكان الرمال الآسيويين الوضيعين، والاسم طُوِّر إلى (الخاسوت) المشابه له (الغويم)؛ الهِكسوس حكام البلاد الأجنبية؛ العابيرو الغزاة الرحل العبرانيين. ومعنى (غويم) التلمودي الحيوانات البشرية المسخرة لخدمة بني إسرائيل (الكيان).

٣- يلاحظ القارئ الكريم تسمية المقاومين العراقيين والأفغان بالمتمردين، والمقاتلين الفلسطينيين بالمخرّبين.

٤- سيسون نايوفيتس: مصر أصل الشجرة ج1 ص 111.

وسط آسيا، تشكلت إمبراطورية عظيمة امتدت إلى نهر الفرات، لكن ما لبث أن تقلص نفوذ هذه الإمبراطورية المصرية في زمن فرعون (حتشبوت) المسالم، لكن تحتمس الثالث عاد واسترد سلطته عند نهر الفرات في معارك لا تزال نقوشها بارزة إلى اليوم ومدونة في سجلات (حروب تحتمس الثالث). هذه الحروب والفتوحات والمدونات هي ذاتها الحروب التي اقتبسها الأحبار والكتبة ودونوها في أسفار (الملوك)، ونسبوها إلى الملك داود، وهو لا يزال يركب على بغلته الملكية، حيث توج سليمان ولده عليها ملكاً على مملكة تمتد من الفرات إلى النيل، كما تدّعي الرواية دون معرفة أو تاريخ لوجود إمبراطورية كهذه وكيف حصل سليمان عليها؟

تخبرنا الأبحاث والمصادر والآثار الباقية عن التغيير المهم للفكر المصري في نظرته للشعوب الأجنبية غير المصرية. وتبين أنشودة إلى آمون رع (بردية بولاق -17- بالمتحف المصري بالقاهرة)، تعود للأسرة الثامنة عشر، ويتوافق تاريخها مع وجود بني إسرائيل في مصر وقتها (1550-1275ق.م تقريباً):

(إنه ما دام كبير آلهة المصريين آمون رع الذي أنشأ وخلق البهائم هو المهيمن، فلم يكن هناك تناقض مع الرأي المتسامح الذي يقول إن (آتوم) فطر الناس وميّز طبيعتهم، وفصل الألوان الواحد عن الآخر)[1].

وفي مصدر آخر متخصص بهذا الشأن جاء التمجيد في هذه الرؤية الأكثر كلية مع الفرعون أخناتون أول الموحدين في أنشودة أخناتون (أيها الإله الواحد الذي ليس بجانبه أحد... إنك ترى كل إنسان في موضعه... إنك توفر حاجاتهم... وتختلف ألسنتهم فيما تنطق به... وكذلك الطبائع... فجلودهم مميزة.. لأنك ميزت الشعوب عن بعضها)[2].

ويعبر سيمسون بصراحة ووضوح عن رفضه لمبدأ (ديني هو دين الحق وما عاداه باطل) التي سادت بعد ظهور الأديان التوحيدية السماوية الثلاثة، حيث تم تكريس هذا المفهوم للدين من قِبَل اليهود بشكل رئيس، ومن خلال رفضهم للدين المسيحي وديانة المخلص: المسيح.

الديانة الإسلامية تحترم وتعترف بالديانتين (اليهودية والمسيحية)، مع الإشارة لما شابهما من تحريف، وتعتبر الإيمان بالكتابين (التوراة والإنجيل)، وبالأنبياء موسى وعيسى (عليهما السلام)، من الشروط الأساسية التي تجعل

1- Wilson John In Near Eastren Text5 Relating To Old Testament Pp-365-366.
2- Lichheim- Miriam-Ancient Egyptian Literature Volm - Iip 98.

الإنسان المسلم مؤمناً، إذ لا يكتمل إسلامه دون الإيمان بهم وبكتبهم وبسائر الأنبياء والرسل والقديسين (كمريم بنت عمران البتول) عليها السلام.

يقول سيمسون بهذا الصدد: (فهذه الرؤية المتعجرفة والمتعصبة التي تجعل من كل ما هو قبل موسى (وثنية)؛ ثقافة وثنية وسحراً، أمر يبعث على الضحك فحسب. وعلى عكس النصوص القديمة كافة، لم يعلن الكتاب المقدس اليهودي المسيحي مراراً وبتكبر باعتباره واقعياً وعلى أنه الحقيقة، بل كذلك باعتباره المصدر الوحيد لـ (وحي الرب). وهذا الرأي غير العادي لم يواجه بتحدٍّ ناجح إلا مؤخراً، فمن حسن الحظ أن معظم الباحثين الآن يرفضون فكرة أن أجزاء كثيرة من الكتاب المقدس صحيحة بشكل آلي لمجرد أنها في الكتاب المقدس. ربما تكون الطريقة الأكثر حياداً لوصف ما حدث هي أنه كان نقطة تحول في تاريخ الديانة وليس (وحياً).

ويصل سيمسون إلى نتيجة مهمة وحساسة مفادها: (ثبت أن غموض المقاربة العبرية ما قبل عقلانيتها كان القوة الموجهة الأكثر فاعلية بالنسبة لاختراع مفاهيم دينية بسيطة وأقل قابلية للإثبات، وأهداف أخلاقية أسمى، وبحث وجودي وميتافيزيقي أكثر قابلية للتعديل، ورغم ذلك كان لكل مقاربة للمقدس مزاياها وعيوبها والكثير من الأمور المشتركة بينهما، وكانت النتيجة في الحالتين نظماً لاهوتية معقدة وثراءً ميثولوجياً خرافياً)[1].

على ضوء ما تقدم أستطيع وبثقة أن أجزم بأن الكثير من المعتقدات والقيم والمفاهيم التي ساقتها الرواية الكتابية، موروثة بالأصل ومنقولة من ثقافة دينية وتراثية توحيدية بدائية، فقد جاء الملك أخناتون (أمنحوتب الرابع) بثورته الإصلاحية العلمية فطور مفهوم التوحيد والآلهة المتعددة إلى مفهوم الإله الواحد خالق كل شيء.

أدت هذه الثورة الدينية الإصلاحية لتغيير جوهري وجذري في المفاهيم والعقائد الدينية المصرية، وتوجهت بها نحو الإنسان المثالي الذي يحمل قيماً أخلاقية ونظام عدالة اجتماعية والمتقبل للتنوع البشري العرقي؛ وأسقطت مفهوم (الخاسوت)، أو تمييز أي إنسان بعرقه أو لونه أو لغته، كما عبرت عنه ترنيمة أخناتون التي وردت. وهنا لا بد من طرح سؤال مهم:

١- سيمسون نايوفيتس: ج1 ص 188-189.

- هل استطاعت ديانة التوحيد الموسوية ومعها ثورة أخناتون التقدمية الحدّ من الغلو والتطرف والتقوقع الذي تبنته القبيلة العبرية؟ وهل استطاعت التأثير في ميولها المكبوتة نحو التمييز والعدوانية الوراثية؟

يبدو جواب هذا السؤال بالنفي، ويظهر ذلك واضحاً في الأسفار الأولى من الكتاب العبري، لا سيما سفري الخروج والتثنية. وسوف يتضح في هذا البحث أن مشاكسة موسى وتكذيبه بدايةً ثم نبذه وموته الغامض كان نتيجةً لمحاولاته المستمرة في تصحيح مسار هذه الجماعة الضالّة التي حاول توجيهها نحو التوحيد الإنساني الشامل وإبعادها عن فكرة الإله القومي السياسي الخاص. ويظهر بوضوح التهويش والغموض والتهديد، الذي اكتنف الرواية بما يتعلق بالنبي موسى وحادثة موته، مما دفع الباحثين والمتخصصين في الدراسات الكتابية وعلماء النفس وغيرهم (يان اسمان، سيغموند فرويد) بتوجيه النقد والاتهام للجماعة العبرية بأنها وراء قتل موسى وتغييبه، وقبل الدخول لتفاصيل أكثر دقة بهذا الخصوص. لا بد لي من التطرق لما بحثه سيمسون نايوفيتس عن الدولة الأولى في التاريخ وأول دولة مقدسة على أرض مصر بهدف توثيق المعلومات والأدلة التاريخية التي تشير إلى مصدر التبني العقائدي للقبيلة الإسرائيلية ومقولاتها (شعب الرب)، وكيف تحولت نبوة يعقوب (عليه السلام) من دعوة وهداية إلى مطالب دولة ووطن وإله خاص (بإسرائيل) يقول سيمسون: (كانت مصر أول دولة مركزية في تاريخ البشرية، وأول دولة تعلن ضمناً عن طابعها المقدس. وكان من الطبيعي أن توحي الملكية الإلهية بقدسية أرض مصر. ولم تكن (تا - وي) أول مملكة موحدة وأول دولة في تاريخ البشرية فحسب، بل كذلك أول دولة مقدسة. وكانت (تا - وي) أول دولة تعلن ضمناً عن طابعها المقدس بإعلانها أن من يحكمها هو الإله (الفرعون) الذي كان تجسيداً لحورس إله العالم، وأن شعبها أسمى من سائر الشعوب». ويضيف: «رعى المصريون وهمٌ أنهم مختلفون عن غيرهم من الشعوب وأفضل منهم، وكانوا مشبعين تشبعاً شديداً بشعورهم بالتفوق، وكانوا يصفون أنفسهم أنهم الشعب الوحيد الذي تباركه الآلهة، وكانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أقدم الشعوب وأمجدها، وعلى أنهم الشعب المثالي، وعلى أنهم مركز العالم، كما رأينا. كان المصريون (رمت) بشر ومعناها الحرفي (الناس) أي الشعب الوحيد الذي تباركه الآلهة، أما سائر الشعوب فلم ترقَ إلى المستوى المصري[1]. وربما كان هذا هو الموقف الذي أيّد إعلانهم الطابع المقدس للدولة المصرية والشعب المصري، وأعطاهم هذا وضع (الشعب المختار) الفعلي، وهي الفكرة التي طورها فيما بعد بشكل أكثر تطرفاً وصراحة العبرانيين الذين أعلنوا أنفسهم (الشعب المختار)»[2].

١- تماماً كما تدعي المركزية الثقافية الغربية في أيامنا هذه.

٢- سيمسون نايوفيتس (مصر أصل الشجرة) ج1 ص 221-223.

إن المبادئ والقيم الوثنية القديمة لنظام تعدد الآلهة، التي عمل على إلغائها الملك أمنحوتب الرابع (أخناتون) بثورته العلمية والإنسانية، والتي أجهضت بعد ما يقرب من عشرين عاماً على قيامها، كانت مناسبة تماماً لطبيعة تكوين القبيلة الإسراءيلية وعقدها النفسية وعاداتها البدائية، على الرغم من الفارق الكبير بين الازدهار المصري والتخلف العبراني المُعبَّر عنه داخل الحكاية الكتابية نفسها. هذه العقد وهذا الاستكبار والانعزال شاب تصرفاتها ودعواتها قبل ظهور دين التوحيد، واستمرّ إلى ما بعده.

إن ما شاب سفر التكوين من تشويه وادّعاءات عصبوية وعنصرية، وتبرير للمكر والخديعة والسطو، وصولاً لاتهام الأنبياء (بزنى المحارم)، (وفعل القوادة)، وتبرير الكذب ومعايير مزدوجة فاضحة لمفاهيم الشرف والأخلاق كقصة زنى النبي لوط (عليه السلام) بابنتيه وحملهما منه سفاحاً، وقصة دينة ابنة يعقوب وإخوتها مع حمور وشكيم، واستباحة أهل مدينة (نابلس) بقتلهم وسلب ممتلكاتهم وسبي الناجين من إناثهم، وتنكر النبيين إبراهيم وإسحق لزوجاتهم بدعوى أنهم أخوات لهم استخفافاً وتفريطاً بحق الزوجة وشرف المرأة، وبغرض وصم الآخرين زوراً (بالإباحية)[1]، تبريراً لإبادتهم وسلب ممتلكاتهم وأراضيهم كخاتمة لرواية أعدت تفاصيلها ونهاياتها بالطريقة التي تخدم مُحرِّفيها ومدعيها. هذه الممارسات أو الادّعاءات عبرت وبوضوح عمّا تضمره وتبينه العقلية العبرية ذات العقد النفسية الدفينة والمتأصلة في صلب تكوينها.

استمرت الحكاية متناقضة مع حقائق التاريخ والجغرافيا ومنطق التطور والعلم ومبدأ التوحيد الإلهي الهدائي وقانون الوصايا العشر الذي تلقاه النبي موسى (عليه السلام).

أولئك العبرانيون المضطهدون والتواقون للحرية والتخلص من العبودية ونظام التسخير الفرعوني الذي مورس بحقهم في أرض مصر، هم أنفسهم تحولوا بعد الحرية والانعتاق إلى غزاة وسفاحين وقتلة ولصوص قاطعي طرق ومرتكبي أعمال الإبادة والتحريم بحق الشعوب التي دخلوا إليها بدواً رحلاً تائهين منهكين يستحقون الشفقة وحسن الضيافة.

لم يتوقف الأمر عند حدود الممارسة، بل جرى تحريف رسالة موسى بدس ما يتوافق وأعمالهم ونياتهم المبيتة منها، وإن كان هذا التحريف لا يتوافق ومنطق الخير والحق والعدالة ونظام الأخلاق الذي جاءت به الديانة الموسوية.

١- للمعرفة أكثر حول اتهام الأنبياء راجع العهد القديم سفر التكوين (9: 20-27)، (12: 10-20)، (19: 20-28) (26: 1-11)، (34: 1-21)، (38: 1-30).

وعَبَّرَ القرآن، كتاب المسلمين المقدس، عن الغضب الإلهي الذي حل بهم نتيجة لأفعالهم وطغيانهم بحق الشعوب الأخرى التي استباحوها ظلماً وحسداً ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[1].

الحصار، والتجوَيع، وَالسلب والحرق والإبادة، كما ورد في سفر يوشع بن نون المنتحل وإلى ما ورد في أسفار القضاة والملوك، هذه الأفعال المشينة لا علاقة لها بكتاب موسى (المنير)، كما ورد وصفه في القرآن الكريم. ولعل الانتحال الأكثر تزويراً وبهتاناً ما جاء على لسان موسى في سفر العدد الإصحاح الواحد والثلاثون (۞فَالآنَ اقْتُلُوا كُل ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ. وَكُل امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلاً بِمُضَاجَعَةِ ذَكَرٍ اقْتُلُوهَا[2].۞لكِنْ جَمِيعُ الأَطْفَالِ مِنَ النِّسَاءِ اللوَاتِي لَمْ يَعْرِفْنَ مُضَاجَعَةَ ذَكَرٍ أَبْقُوهُنَّ لكُمْ حَيَّاتٍ)[3].

تدّعي الروايةً اليهودية أن هذا الأمر الإجرامي قد أعطاه النبي موسى للجنود العبرانيين عند محاربتهم لمضيفيهم المديانيين، الذين لاذ بهم بنو إسراءيل بعد الخروج والتيه. وفي سفر التثنية الإصحاح السابع وتحت دعوى وصايا الرب لموسى (۞مَتَى أَتَى بِكَ الرَّبُّ إِلهُكَ إِلى الأَرْضِ التِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِتَمْتَلِكَهَا وَطَرَدَ شُعُوباً كَثِيرَةً مِنْ أَمَامِكَ: الحِثِّيِّينَ وَالجِرْجَاشِيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالكَنْعَانِيِّينَ وَالفِرِزِّيِّينَ وَالحِوِّيِّينَ وَاليَبُوسِيِّينَ سَبْعَ شُعُوبٍ أَكْثَرَ وَأَعْظَمَ مِنْكَ ۞وَدَفَعَهُمُ الرَّبُّ إِلهُكَ أَمَامَكَ وَضَرَبْتَهُمْ فَإِنَّكَ تُحَرِّمُهُمْ. لا تَقْطَعْ لهُمْ عَهْداً وَلا تُشْفِقْ عَلَيْهِمْ ۞وَلا تُصَاهِرْهُمْ...)[4].

لا يمكن لأي إنسان عاقل وسوي، سواءً أكان مسيحياً أم مسلماً أم موسوياً حقاً، أن يقرأ ويعتمد هذه الأوامر الشاذة على أنها أوامر آلهية أو شريعة تضمنتها رسالة النبي موسى التوحيدية. ولا يصح القول إن موسى قد طور المفاهيم المصرية التي تبناها أخناتون الموحد لتتلاءم والعقلية العبرانية والمطالب التعجيزية التي طالبه بها بنو إسراءيل على شريعة موسى ووصاياه، وسوف يرد التفصيل بذلك لاحقاً.

١- القرآن الكريم سورة المائدة الآية 32.

٢- إشارةً إلى كل امرأة عرفت مضاجعة رجل اقتلوها - والأطفال بالمؤنث الذين لم يعرفوا مضاجعة رجل استبقوهم لكم حيات - هل ضاجع الأطفال الإناث لدى البدو العبرانيين فاختلط الأمر عليهم فكان لا بد من طبيب شرعي عبراني يميز بين البكر والثيب؟

٣- العهد القديم سفر العدد 31: 17-18.

٤- العهد القديم سفر التثنية 7: 1-3.

التشابه اللافت بين الادّعاء الكتابي مع المفهوم الفرعوني المصري لعقيدة تعدد الآلهة والإله الأب والإله الوكيل على الأرض والشعب المقدس والمختار، يظهر واضحاً وجلياً في بعض نصوص التوراة ضمن أحداث سبقت وجود النبي موسى وشريعته، واستمرت بالحضور ضمن الرواية لما بعد وفاته، سنراها في قصة الصديق يوسف وأخوته وما تلاها، وسوف نلاحظها في الأسفار المتأخرة ولما بعد وفاة النبي سليمان (عليه السلام). هذه النصوص المتشابهة ليست متبناة وحسب، لكنها تدخل في صلب تكوين القبيلة الإسرائيلية، ويتم تبنيها والدفاع عنها بقوة إلى اليوم.

من سفر التكوين وعلى لسان يوسف الصديق: (۞فَقَالَ يُوسُفُ لإِخْوَتِهِ: «تَقَدَّمُوا إِلَيَّ». فَتَقَدَّمُوا. فَقَالَ: أَنَا يُوسُفُ أَخُوكُمُ الَّذِي بِعْتُمُوهُ إِلَى مِصْرَ. ۞وَالآنَ لاَ تَتَأَسَّفُوا وَلاَ تَغْتَاظُوا لأَنَّكُمْ بِعْتُمُونِي إِلَى هُنَا لأَنَّهُ لاِسْتِبْقَاءِ حَيَاةٍ أَرْسَلَنِيَ اللهُ قُدَّامَكُمْ. ... ...۞فَالآنَ لَيْسَ أَنْتُمْ أَرْسَلْتُمُونِي إِلَى هُنَا بَلِ اللهُ. وَهُوَ قَدْ جَعَلَنِي أَباً لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّداً لِكُلِّ بَيْتِهِ وَمُتَسَلِّطاً عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ)[1].

هذه العبارة المهمة جداً (جَعَلَنِي أَباً لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّداً لِكُلِّ بَيْتِهِ) ستعود بنا من جديد إلى تفحص قصة النبي يوسف وحياته في مصر بعناية ومراجعة أكثر دقة للمفاهيم والقيم المصرية القديمة المتبعة في ذلك العصر بهدف الإضاءة على الحقيقة الغائبة أو المغيبة داخل النص الكتابي. هذا ما سبق وتطرقت إليه بكتابي (أبٌ هو إبليس)[2]، حيث أشرتُ فيه إلى تعمد الكتبة والأحبار إغفال وتغييب ابنة النبي يوسف، التي ولدتها زوجته أسنات ابنة (فوطيفارع) كاهن أون (عين شمس الحالية)، بالإضافة لولديه منسي وأفرام، باعتبار أن والدتهما مصرية وليست عبرانية، حيث النسب عبرانياً يتبع الأم. وبهذه الحالة لن تكون عبرانية ولا يهودية، وكذلك أبناء يوسف الذين لم يباركهم يعقوب إلا بعد شعوره بدنو الأجل في مصر كون والدتهم مصرية!

هناك احتمال قوي جداً أن تكون ابنة يوسف المُغيبة توراتياً هي الملكة (تا - تاي - تي)[3] التي ربما أصبحت ملكة بزواجها كزوجة أخرى إلى الملك أمنحوتب الثالث، وتكون بذلك إما والدة الأمير الموحد (أخناتون) (أمنحوتب الرابع) أو

١- العهد القديم تكوين 45: 4-8.

٢- صادر عن دار علاء الدين للنشر - 2008.

٣- يذكر بعض المختصين بالمصريات أن الخلاف والتحدي الذي كان قائماً ما بين الكهنة والقادة وبين الفرعون أمنحوتب الثالث والد الأمير أخناتون كانت أسبابه تعود إلى قيام الفرعون بالزواج من حسناء آسيوية سورية كنعانية تدعى (تا - تي)، وكان في ذلك الفعل خروجاً عن تقاليد الزواج الملكية.

زوجة أبيه، وبهذا يصبح جد يوسف الصديق أباً لوالدته، وبذلك أيضاً يصبح يوسف أباً لفرعون، كما قال، وسيداً لبيته، لأن فرعون منذ ولادته يصبح (أباً للجميع)، وفي التقاليد المصرية أيضاً يصبح حماً، عماً، الملك أبا زوجته (أباً له)، كما سنرى، مع ملاحظة من سفر التكوين أن يوسف كان يلجأ إلى الملكة لتلبية طلباته وللتأثير في الملك. وفي قصة طلبه دفن أبيه يعقوب في الخليل والسماح له بالسفر، وهو الوزير المصري، إلى كنعان، فهل كان يوسف يضمن تلبية لمطالبه من ابنته الملكة (تا - تي)؟

هذا التساؤل المهم قد يحمل بحث سيمسون نايوفيتس إجابة عنه دون أن يطرح مثل هذا الموضوع. وجاء ذلك مصادفة (تطلعنا عدة مصادر على خبايا عصر العمارنة واللاهوت الآتوني (إخني آتون). وأهم المصادر هي نقوش الأناشيد والأدعية لآمون وأخناتون في العديد من مقابر كهنة آتون والكتبة والموظفين.

وعثر على أكبر قدر من النصوص في مقبرة (أي) المنحوتة في الصخر التي لم تكتمل في إخنيياتون (AT25)، وكان بناؤها قد بدأ العام السادس من عهد أخناتون، وكان (أي) (قائد خيل جلالته كافة) وسش (الكاتب) وكاهن و (أبا الإله) (أبا الإله فرعون) لقباً في المعبد يمنح أحياناً لحمى الفرعون، وربما كان والد نفرتيتي، وبعد ذلك أصبح على التوالي وزير توت عنخ آمون ثم الفرعون قرابة (1323ق.م). وعند وفاة أخناتون ارتد أي عن عبادة آتون وعاد إلى عبادة آمون رع، وبات النص الموجود على جدار مقبرة (أي) الغربي (الأنشودة الكبرى لآتون، وتعتبر أفضل وصف للاهوت الآتوني)[1].

نلاحظ أن عام (1323ق.م) قبل وفاة الملك أخناتون، هو تاريخ يقترب كثيراً من تاريخ ما قبل الخروج من مصر (1275-1300ق.م)، وتقدر وقوع سنة الخروج بينها كتابياً. وأكثر ما يلفت الانتباه ويدعو لإعادة البحث والتقصي قصة يوسف، وتواجد بني إسراءيل في مصر في حقبة ثورة العمارنة ودعوة أخناتون لعبادة الإله الواحد، وهي الأحداث المهمة التي عاصرها بنو إسراءيل، لكننا لاحظنا أن الرواية التوراتية تجاهلت تماماً هذه الأحداث.

١- سيمسون نايوفيتس: ج 1 ص 178.

لكن الآيات القرآنية الكريمة جاءت لكشفها والإضاءة عليها. يقول يوسف الصديق: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ..﴾[1] ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ﴾[2].

لنفترض أن الرواية الكتابية صحيحة فيما يتعلق بعبودية بني إسراءيل في مصر وخروجهم إلى سيناء الحرية والانعتاق هناك، مع أن الحقيقة تفيد بأن جميع من اتبعوا توحيد الملك أخناتون تعرضوا للاضطهاد والتسخير في المقالع عقاباً لهم، مصريين وغير مصريين. وبعد وفاة الموحد أخناتون وسيطرة فرعون عادت ديانة تعبد الآلهة المتعددة مرة أخرى.

فالسؤال الذي يتطلب جواباً مقنعاً هو: ما هو الملك والجاه والسلطان الذي تحدث عنه النبي يوسف في الآية 101 من سورة يوسف، والمتوافقة مع القول التوراتي (...جَعَلَنِي أَباً لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّداً لِكُلِّ بَيْتِهِ وَمُتَسَلِّطاً عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ)[3]، والمتوافق أيضاً مع الآية 20 من سورة المائدة في قول النبي موسى ﴿..وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً..﴾، والآية تحكي عن بني إسراءيل في سيناء، وموسى لم يدخل فلسطين الأرض المقدسة، ولم يكونوا بعد قد دخلوا إليها، ولم يكن لهم من ملك حتى تلك الحقبة!

ألا يثبت ذلك صحة الاستنتاج بأن ابنة يوسف (تا - تي) من والدتها المصرية أسنات، قد أصبحت ملكة على مصر في عهد ولدها أخناتون الموحد، أو في عهد ابن زوجها؟ وأن صراعاً مريراً وانقلاباً وثنياً قد حصل وأطاح بنظام التوحيد وأتباعه فتعرضوا للاضطهاد والتنكيل والاستعباد ومنهم بنو إسراءيل على يد الطاغية الفرعون الجديد؟

إن كان الأمر كذلك، فما هي الأسباب التي دفعت بالأحبار والكهنة والمدونين للحكاية الكتابية لإغفالها وعدم التطرق إليها، بل تعمُّد طمس حقائقها، بما في ذلك التنكر لذرية يوسف وسلطانهم في أرض مصر؟!

إن ذكر التوراة بقولها في سفر التكوين أن فرعون جاء، ولم يكن يعرف يوسف، يظهر بوضوح أنه جرى تعمداً الالتفاف على الحقيقة وتجاهلها في حبكة لاهوتية غير موفقة إطلاقاً.

١- القرآن الكريم سورة يوسف الآية 101.
٢- القرآن الكريم سورة المائدة الآية 20.
٣- العهد القديم سفر التكوين 45: 8.

والحقيقة هي أن الكتبة والأحبار توخوا الاستئثار لليهودية كديانة توحيد أولى لم يسبقها أحد للتوحيدية. وهذه التوحيدية اختارت لها شعباً (شعب الرب)، وأرضاً موعودة (أرض الميعاد) يستحقها شعب الرب، ولا بد من إبادة الشعوب الوثنية فيها كشرط لانتصار التوحيد ونهاية للوثنية، ولقيام إسرائيل الوطن فيها وبناء الهيكل للرب يشكل لها عاصمة أبدية. ولطالما حاول الأجداد العبرانيون البدو الشماليون الاستيلاء عليها منذ مئات السنين قبل وجود يعقوب وفكرة التوحيد فيها، وسوف نتطرق إلى هذا الأمر في الفصول التالية.

بناءً على ما تقدم، كان لا بد من الإطاحة بموسى المصري الذي لا يمكن عبرنته، والذي توجه بدعوته إلى مصر أولاً بصفتها إمبراطورية تسيطر على منطقة ما بين الفرات والنيل، لا سيما عندما نعلم أن أخناتون التوحيدي عمل على إلغاء كل العبادات الوثنية المحلية والشعبية ما بين الفرات والنيل، وقرر الانتقال بديانة عبادة الإله الواحد نحو العالمية، كما لاحظنا في أنشودته، وهو أمر لا يتوافق والأطماع العبرية الساعية لتشكيل وطن وديانة وإله خاص بها يميزها عن الشعوب الأخرى (الغويم) و (الخاسوت)، كما ورثوه عن النظام الوثني في مصر. ومن الإشارات الواضحة لاقتباس نمط العبادة المصرية (تعدد الآلهة) ما ورد في العهد القديم: (۞فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: انْظُرْ! أَنَا جَعَلْتُكَ إِلَهاً لِفِرْعَوْنَ. وَهَارُونُ أَخُوكَ يَكُونُ نَبِيَّكَ. ۞أَنْتَ تَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا آمُرُكَ وَهَارُونُ أَخُوكَ يُكَلِّمُ فِرْعَوْنَ...)[1].

يلاحظ من هذا القول نمط العبادة المتعددة المصرية، حيث كان الإله حورس إله العالم، وكان فرعون إلهاً ولداً له ووسيطاً بينه وبين الناس يمثل الإله الأعلى وكما كان فرعون مكلفاً من الإله حورس يصبح موسى إلهاً مكلفاً وهارون نبياً له.

بما أن النمط العقائدي والتقاليد العبرانية في معظمها مقتبسة ومستوحاة من النمط الثقافي والتراثي الفرعوني المصري، فما سر هذا العداء وهذه الكراهية لمصر؟! وأي مصر كانت في الماضي والحاضر؟! وبعبارة أخرى فإن (وصف مصر الملعونة) والمشابهة للعنة نوح المدعاة بحق حفيده الطفل (كنعان)، والتي بات من المؤكد دسها داخل التوراة، تشير إلى أن التوراة قد كتبت بعد أزمان

١- العهد القديم سفر الخروج 7: 1-2.

طويلة من وقوع أحداثها، وبعد استهداف إسرائيل لأرض كنعان. فانتحال اللعنة تم بعد اعتماد الكنعانيين هدفاً معادياً، ثم ترتب على ذلك تدوين هذا العداء في متن النص تبريراً وتزويراً. لماذا وضعت الرواية الكتابية بني إسراءيل في مواجهة مع مصر وكنعان، ثم توسعت بعد ذلك لمواجهة شعوب أخرى آرامية وبابلية وآشورية ومؤابية وعمونية وأدومية عمورية، مع إضافة الحثيين واليبوسيين والفلسطينيين في منطقة تمتد من الفرات إلى النيل والهضبة التركية إلى أرض الحجاز وأطراف الجزيرة العربية؟ هذا في الماضي؛ وفي الحاضر وضعت نفسها في مواجهة مع أمم الأرض قاطبة، وباستخدام عبارة (الغويم، والأميون) ووصف اليهود (بشعب الرب وابن الرب والشعب المقدس) دون غيره من الشعوب.

فلنتمعن فيما دُعِي قول الرب في سفر حزقيال الذي كتب بعد أكثر من سبعمئة عام من عصر موسى: (۞وَكَانَ إِلَيَّ كَلاَمُ الرَّبِّ: ۞يَا ابْنَ آدَمَ، كَانَتِ امْرَأَتَانِ ابْنَتَا أُمٍّ وَاحِدَةٍ، ۞زَنَتَا بِمِصْرَ فِي صِبَاهُمَا. هُنَاكَ دُغْدِغَتْ ثُدِيُّهُمَا، وَهُنَاكَ تَزَغْزَغَتْ تَرَائِبُ عُذْرَتِهِمَا. ۞وَاسْمُهُمَا: أُهُولَةُ الْكَبِيرَةُ، وَأُهُولِيبَةُ أُخْتُهَا... ۞وَزَنَتْ أُهُولَةُ مِنْ تَحْتِي وَعَشِقَتْ مُحِبِّيهَا، أَشُّورَ الأَبْطَالَ ... ... ۞وَلَمْ تَتْرُكْ زِنَاهَا مِنْ مِصْرَ أَيْضاً، لأَنَّهُمْ ضَاجَعُوهَا فِي صِبَاهَا وَزَغْزَغُوا تَرَائِبَ عُذْرَتِهَا وَسَكَبُوا عَلَيْهَا زِنَاهُمْ ... ۞فَلَمَّا رَأَتْ أُخْتُهَا أُهُولِيبَةُ ذَلِكَ أَفْسَدَتْ فِي عِشْقِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، وَفِي زِنَاهَا أَكْثَرَ مِنْ زِنَا أُخْتِهَا... ۞وَكَشَفَتْ زِنَاهَا وَكَشَفَتْ عَوْرَتَهَا، فَجَفَتْهَا نَفْسِي كَمَا جَفَتْ نَفْسِي أُخْتَهَا. ۞وَأَكْثَرَتْ زِنَاهَا بِذِكْرِهَا أَيَّامَ صِبَاهَا الَّتِي فِيهَا زَنَتْ بِأَرْضِ مِصْرَ. ۞وَعَشِقَتْ مَعْشُوقِيهِمِ الَّذِينَ لَحْمُهُمْ كَلَحْمِ الْحَمِيرِ وَمَنِيُّهُمْ كَمَنِيِّ الْخَيْلِ)[1].

نربأ بأنفسنا أن نؤمن بأن هذا النص كلام الله، فالوصف هنا وصف كهنوتي متعصب يدعو إلى التوبة والرجوع إلى ناصية الدين بأسلوب عنصري متخلف يشدد على أن اللاهوت وحده من يصنع الانتصار وبناء الأمة والكيان السياسي، ولا يقر بالحتمية التاريخية، ويعمل على لوي ذراع التاريخ والتطور في منطقة يشكل فيها التاريخ والجغرافيا أحد أهم مقومات تطورها ووحدتها وتوحيدها وثقافتها. فالوصف في قول حزقيال هنا هو لمملكتي إسرائيل الشمالية (السامرة سبسطية) ومملكة يهوذا الجنوبية في القدس والمنقرضتين بعد وفاة الملك سليمان الحكيم، حيث تنسب الأقوال الواردة توراتياً الأسباب التي أدت إلى انهيار

١ - العهد القديم سفر حزقيال 23: 1-20. تقول الرواية التوراتية إن سليمان تزوج من الشعوب الأخرى، وكانت له ثلاثمئة من الزوجات وسبعمئة من السراري؛ وإنه عاد لعبادة البعل وبعل كموش وعشتروت بسبب زيجاته؛ وإن قلبه لم يكن سليماً مع الرب، لا سيما بزواجه من ابنة الفرعون.

المملكتين إلى سليمان بانفتاحه وتعاونه واختلاطه مع شعوب المنطقة، وبزواجه من نساء شعوب مختلفة، وتحالفه مع الآشوريين، وتحالف المملكة الجنوبية من بعد وفاته مع المصريين. وفي ذلك خلط كبير بين اللاهوت والتاريخ!

بالمنطق وحده ندرك أن خروج البعض من بني إسراءيل ومن معهم من فردوس دلتا النيل، وانتقالهم إلى المجهول والتيه كان نتيجة للعبودية والتسخير. ويعد هذا الخروج بالمفهوم السليم محاولة للتحرر والانعتاق والانتقال نحو الحرية بمفهومها الأخلاقي والإنساني. وهذا السياق لم تتطرق إليه الرواية التوراتية إلا بالمعنى الضيق الذي يطبق على بني إسراءيل وحدهم، وليس بالمعنى الإنساني الشامل لكتاب وعقيدة يفترض بها أن تكون كونية وأممية، وكما أمرت التوراة (...أَنَا الأَوَّلُ وَأَنَا الآخِرُ وَلاَ إِلَـهَ غَيْرِي)[1]، وهو إقرار ضمني بوجود آلهة أخرى غير إله إسراءيل، فكان الأمر كذلك إقراراً بوجوب الحصول على الحرية والانعتاق من العبودية، ولكن هذه الحرية والانعتاق هو لبني إسراءيل وحدهم كشعب مختار من الرب.

بل تذهب الأوامر الكتابية إلى الأمر باستعباد الآخرين وإبادتهم وسلب حريتهم وممتلكاتهم، كما هو الحال اليوم مع الديمقراطية الصهيونية والغربية، فهي حكراً على شعوبهم وعلى من يلوذ بهم!

ما أقره القرآن الكريم وشهد للنبي موسى به (..فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ..)[2]. من هذا القول ندرك أن فرعون الخروج هو بخلاف فرعونَ الفردوس المصري، الذي عاش فيه يوسف الصديق وإخوته وعشيرته. ندرك أيضاً من هذا القول الإلهي أن أسباب الخروج ليست أسباباً دعوية أو لاهوتية وتعبدية، بل هي أسباب تحررية وأخلاقية وإنسانية تحولت بعد الانعتاق والحرية وبعد التيه إلى طموحات سياسية وقومية وقبلية بغض النظر عن الديانة أو الإله المتبع، حتى لو كان هذا الإله وهذه الديانة وثنية. من هنا كان لا بد من الانقلاب على الشريعة التي أتى بها النبي موسى، والتي تضع على كواهلهم أحمالاً وتعاليم إلهية لم يكن بمقدورهم تحملها أو العمل بها واتباعها، لأنها سوف تطيح بكل الطموحات والغايات والأهداف المبيتة، والتي تتعارض كلياً معها ومع أهدافها وأطماعها. ويقول العالم الألماني يان أسمان بهذا الصدد: (إن قصة الخروج من مصر تصوِّر

١- العهد القديم سفر إشعياء 44: 6.
٢- القرآن الكريم سورة طه الآية 47.

عملية تحرر الإله السياسي. والمعنى هنا هو الخروج من دار العبودية والدخول إلى دار الحرية، على الرغم من أن الحرية ليست كلمة (توراتية)، ولم تستعمل بهذا الصدد، ولكن الحلف الذي عقده موسى في سيناء مع الإله يعني بوضوح التحرر من الخنوع الإنساني)[1].

ويشير أسمان إلى كتاب سيغموند فرويد (موسى والتوحيدي)، حيث يقول فرويد (بتصرف): (كان موسى رجلاً مصرياً ومن أتباع أخناتون، جاء بالتوحيدية للإسرائيليين أثناء هروبه من الاضطهاد في مصر، ولكن الإسرائيليين قتلوا موسى، لأنهم لم يكونوا من النضوج بحيث يتقبلون رسالته، ثم ارتكبوا هذه الخطيئة). ويستعمل فرويد هنا وبهذه الحادثة المثيرة بوصفها وتفسيرها تعبير التحليل النفسي، إلى درجة أنهم رفعوا بعد ذلك موسى المقتول في العهد القديم إلى (رسول الوحي والقائد المميز). وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[2].

أما النبي العظيم عيسى المسيح فيقولَ في إنجيل يوحنا: (۞أَنَا قَدْ أَتَيْتُ بِاسْمِ أَبِي وَلَسْتُمْ تَقْبَلُونَنِي. إِنْ أَتَى آخَرُ بِاسْمِ نَفْسِهِ فَذَلِكَ تَقْبَلُونَهُ. ۞كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تُؤْمِنُوا وَأَنْتُمْ تَقْبَلُونَ مَجْداً بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ؟ وَالْمَجْدُ الَّذِي مِنَ الإِلَهِ الْوَاحِدِ لَسْتُمْ تَطْلُبُونَهُ؟ ۞«لاَ تَظُنُّوا أَنِّي أَشْكُوكُمْ إِلَى الآبِ. يُوجَدُ الَّذِي يَشْكُوكُمْ وَهُوَ مُوسَى الَّذِي عَلَيْهِ رَجَاؤُكُمْ. ۞لأَنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَ مُوسَى لَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي لأَنَّهُ هُوَ كَتَبَ عَنِّي. ۞فَإِنْ كُنْتُمْ لَسْتُمْ تُصَدِّقُونَ كُتُبَ ذَاكَ فَكَيْفَ تُصَدِّقُونَ كَلاَمِي؟»)[3].

بقليل من التأمل والمقارنة في القولين الكتابيين سوف نرى فيهما صحة ما جاء به فرويد الذي يطرح قضية العامل النفسي المستحكم داخل العقلية العبرانية، وما أسماه فرويد في أفكار أخرى (داخل التفكير الجمعي)، لا سيما للأحبار والكتبة والكهنة، الذين دفعوا باليهودية من الكونية إلى الصيغة الإرثية الانعزالية، التي أدت بها للانكفاء والتقوقع على ذاتها بخصوصية اعتناقها وراثياً وليس هدائياً وأممياً.

١- يان أسمان: التمييز الموسوي ص 59.
٢- القرآن الكريم سورة البقرة الآية 87.
٣- العهد الجديد إنجيل يوحنا 5: 43-47.

هذا العامل النفسي التمييزي تمثل في اعتبار الديانة المصرية - على الرغم من تطورها - ديانة متعددة الآلهة يقودها إله واحد هو (حورس)؛ ديانة وثنية لا أخلاقية. وبناءً عليه فإن الانبعاث التوحيدي الأول والوحيد (الذي لا قبله ولا بعده) جاء على يد بني إسراءيل العبرانيين (الشعب المختار)، في حين أن الأديان الأخرى وفي مقدمتها (ديانة السيد المسيح)، تأتي بدين جديد يشكل بديلاً ونقيضاً مناهضاً للدين التوحيدي الأول (دين موسى). من هنا كان التنكر كتابياً وتاريخياً لثورة أخناتون وديانته التوحيدية، واعتماده عبادة الإله الواحد الخالق، عبر التوجه داخل الرواية من عصر يوسف ومليكه الكريم المتعاون المحب، الذي أعطى يعقوب وقبيلته أرضاً وخيراً، وخليفته أبي الموحد أخناتون الذي تم تجاهله وتغييب عصره وتوحيده تماماً، بالقفز إلى عصر فرعون الخروج الخارج عن ديانة أخناتون التوحيدية الإصلاحية والمعتنق لديانة تعدد الآلهة باعتباره إلهاً، فكان لا بد من التنكر أيضاً لرسالة المسيح الأممية الهدائية التي جاء المسيح بها ليلغي المفاهيم اليهودية لمقولات ودعوات (شعب الرب وأبناء الرب وأرض الميعاد). فمن وجهة النظر اليهودية اعتبرت المسيحية ديانة إصلاحية إحلالية حلت محل اليهودية وشكلت بديلاً عنها، لتجعل منها ديانة منغلقة ومنطوية على ذاتها وغير مؤهلة لنشر التوحيدية في مواجهة الوثنية، وتماماً كما الرواية الكتابية التي تجاهلت الدعوة المصرية الأخناتونية لعبادة الإله الواحد والتي طوت صفحتها وحلت مكانها، فليس من الممكن أن يسمح بنو إسرائيل أن يعيد التاريخ نفسه بالمسيحية.

ابتلعت الكثير من الجماعات اللاهوتية والكهنوتية السياسية الطعم الصهيوني المبكر باللجوء إلى المزج والوسطية بين العهدين القديم والجديد، بما سمي (الحركة الإصلاحية)، التي اجتاحت بعض مناطق أوروبا، مروّجة للمفهوم الصهيوني الماكر الذي كرّس لدى البعض مفهوماً متناقضاً عن جوهر الديانة المسيحية. توجه هذا الاعتقاد نحو اعتبار اليهودية الديانة التي كرست الحرية والانعتاق في سيناء، وأصبحت الثقافة المؤسسة لجذور وحضارة أوروبا القديمة ذات المنابع اليهودية الأولى قبل ظهور المسيحية. وتمت الإساءة للمسيحية من خلال طغيان العهد القديم على العهد الجديد ضمن الكتاب المقدس عبر فكر ممنهج ومدروس في ظل نظم علمانية في ظاهرها، لكنها توراتية تلمودية في باطنها وعقيدتها، كحال (المحافظين الجدد أو المسيحية المتصهينة). وبدا واضحاً أن الفكر التوراتي يبدو مناسباً للإمبراطوريات الاستعمارية التي تبنت مبادئ

عنصرية مستوحاة من القصة الكتابية: كسيادة الشعوب البيضاء وتميزها عن الشعوب الأخرى، ولا سيما (الأنجلوساكسون)، الذين اعتبروا أنفسهم (الشعب المختار)، واعتبروا أوطان وبلاد الشعوب الأخرى (أمريكا وأستراليا) (أرض ميعاد لهم)، وأصبح خلق أوروبا للولايات المتحدة الأمريكية (أرض كنعان الجديدة) على حساب السكان الأصليين (الهنود الحمر) يوازي القصة التوراتية بإبادة الكنعانيين والفلسطينيين واستيطان موطنهم باسم أوامر الرب والإرادة الإلهية. هذا المنطق الشاذ الاستعلائي التلمودي يكرس العهد القديم والتلمود منهاجاً ومبرراً وعقيدة سياسية عنصرية تتناقض كلياً مع دعوة السيد المسيح (صلى الله علبه وسلم) والديانة المسيحية!

حاولت المسيحية في الماضي - كما يحاول أحرارها اليوم - فك القيد الكتابي. كان ذلك عبر الرسول بولص في رسائله إلى الأمم بالقول: (۞فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ الأَوَّلُ بِلاَ عَيْبٍ لَمَا طُلِبَ مَوْضِعٌ لِثَانٍ. ۞لأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ لاَئِماً: هُوَذَا أَيَّامٌ تَأْتِي يَقُولُ الرَّبُّ، حِينَ أُكَمِّلُ مَعَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ وَمَعَ بَيْتِ يَهُوذَا عَهْداً جَدِيداً. ۞لاَ كَالْعَهْدِ الَّذِي عَمِلْتُهُ مَعَ آبَائِهِمْ يَوْمَ أَمْسَكْتُ بِيَدِهِمْ لأُخْرِجَهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَثْبُتُوا فِي عَهْدِي، وَأَنَا أَهْمَلْتُهُمْ يَقُولُ الرَّبُّ... ... ۞فَإِذْ قَالَ «جَدِيداً» عَتَّقَ الأَوَّلَ. وَأَمَّا مَا عَتَقَ وَشَاخَ فَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الاِضْمِحْلاَلِ)[1].

تفاعلت المسيحية المبكرة مع محيطها وبيئتها المشرقية التي ولدت فيها، وانطلقت باتجاه الشعوب الوثنية، نحو العالمية. لا شك أنها أخذت العديد من الطقوس والعادات التي ارتبطت بمحيطها وتراثها شرق المتوسطي، وحالها حال الديانات الأخرى التي تفاعلت مع بعضها البعض كعادات وتقاليد اجتماعية سابقة للرسالات السماوية، فبقيت بعض العادات والتقاليد الموروثة (المصرية والكنعانية والإغريقية والرومانية) تشوبها، وكنتيجة لمحاولات الانعتاق والخروج من التقوقع والتحجر اليهودي، ولما عانته الجماعات المسيحية من اضطهاد وتجريح وتشكيك، والذي انتهى إلى جريمة محاكمة وصلب المسيح (صلى الله علبه

١- العهد الجديد الرسالة إلى العبرانيين 8: 7-13.

وسلم) لدعوته للعدل وللديانة الأممية والتوحيدية المسالمة المتسامحة والمحبة لله كنقيض لليهودية المتزمتة المنغلقة الموروثة التي حكمتها العقد النفسية ومشاعر الفوقية والتعالي على شعوب المنطقة الأخرى، والتي جاء السيد المسيح ليصححها ويصوب طريقها ويعمل على خلاصها. ومن هنا كان قول المسيح بدايةً: (❁...إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ تَمْضُوا وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا. ❁بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ)[1].

يقول يان أسمان بما يتوافق مع ما ذكرته عن (عقدة الشعور بالتمايز والأنا التي سيطرت على العقلية والنفسية اليهودية: (لقد طُرحت مسألة معنى اسم سيناء في التلمود البابلي في رسالة السبت، 89 أ. وكان الجواب: لأنه الجبل الذي نزل فيه البغض على شعوب العالم وغادرت شعوب الأرض من الشعب المختار الذي نزلت عليه التوراة في سيناء. تلام هذه الحجة لأنها تنطوي على كون الضحايا أنفسهم مسؤولين عن مصيرهم)[2].

وهذا ما يعني التنكر التام للإرادة الإلهية القدرية. نسب بعض العلماء والمؤرخين حدة التطلع العبراني واليهودي نحو الشعور بالأفضلية والتعالي على الآخر إلى (الهبة الباسيونارية). هذا المصطلح ينسبه عالم الطبيعة والتاريخ المؤرخ الروسي ليف غوميليوف في كتابه (في دوامة التاريخ - النهاية والبداية) إلى ظهور طفرات غير عادية في بعض الشعوب والأعراق الإنسانية نتيجة لعوامل طبيعية تشكلها موجات (الباسيونارية) على الأرض بشكل عشوائي. وهي ناجمة عن التأثيرات الفضائية والنشاط الشمسي والطاقة التي تسقط على الأرض لتشكل الحقل الكهرومغناطيسي والحقل الحراري والطاقة. ويعطي من اليهودية مثالاً: (إن المسيحية التي تبدو لنا متراصةً تماماً لم تكن كذلك في القرن الأول، ذلك أن الحادثة التي وقعت عام (33) على الجلجلة غدت معروفة لكل العالم، ولكن الجميع تقبلوها بأشكال مختلفة تماماً، فالبعض اعتبر الأمر ليس أكثر من إعدام شخص؛ بينما قال البعض الآخر إنه انتقال الروح بلا جسد، ولا يمكنها أن تعاني. وإن موته على الصليب هو رؤيا فقط؛ أما البعض الثالث

١- العهد الجديد إنجيل متى 10: 5-6.

٢- يان أسمان: التمييز الموسوي ص 30.

يرى أن ذلك يمكن أن يكون الشخص الذي سكنت فيه روح الإله ...إلخ. لقد كان عدد المذاهب كبيراً، أما زمام الأمور بهذه الحركة فأمسك بها اليهود، فهم بالذات، وبما يتصفون فيه من حدة، لهم آثار واضحة تقول إن الذي شنق شخص تافه، وإنه شنق عن حق، ولكن الأمر ليس هنا، بل في أن الرومان أوغاد وأنذال لأنهم يسوقون في الأرض المقدسة... ماذا تعتقدون؟ الخنازير! ويأكلونهم! ذلك أن المقاتلين الرومان حصلوا على مخصصاتهم على شكل خنازير واعتادوا عليها، ولهذا فإن الثكنات التي كانت موجودة في فلسطين أهانت مشاعر اليهود، فكيف الأمر قبل ذلك؟

قبل ذلك رأى اليهود كيف يأكل الرومان الخنازير، ولكنهم نظروا إلى ذلك دون اكتراث، وكانوا يقولون: لماذا تؤكل هذه القذارة، ولماذا يلمسونها أصلاً، تباً!، وهناك قالوا: كلا ليس تباً (اضرب). وكان ذلك تعديلاً جوهرياً جداً. هكذا بدأت الحرب اليهودية. كان يمكن للحرب اليهودية أن تكون ناجحة لو لم تقع هذه الباسيونارية تلك التي بنتيجتها انقسم اليهود. إن صلة اليهود القدماء باليهود المعاصرين مثل صلة الرومان بالإيطاليين تماماً، بمعنى أن اليهودية المعاصرة هي إثنوس آخر حافظ بدرجة كبيرة على التقاليد الثقافية السابقة إلى أربع مجموعات لا تطيق بعضها بعضاً)[1].

خاتمة هذا الفصل مما جاء في حاشية الشرح لكتاب المؤرخ غوميليوف حول اليهود في العصر الإغريقي في فلسطين: (تنكشف تخوم الحقبة الجديدة بوضوح عبر تاريخ اليهودية التي كانت الحقبة نقطة ساخنة من الإيكومين في القرن الأول. كان عدد اليهود الذين حررهم قير[2] من أسر بابل وجلبهم النبي عزرا إلى فلسطين قليلاً، ولكنهم كانوا مصممين على ترميم دولتهم، لكنهم اضطروا للرضوخ لسلطة الشاه الفارسي. وبعد ذلك منذ العام 198ق.م تعرضوا لظلم أنتيفونيس الرابع؛ أما القياصرة المقدونيون (البطالسة الإنسانيون والسلوقيون القساة)، الذين تقاسموا السلطة على فلسطين، ساعدوا بالقدر نفسه على جعل اليهود هيلينيين. وسار الإكليروس اليهودي وفق مشيئة القيصر، وسمحوا بتحطيم أورشليم وإلغاء السبت وعبادة زيوس الأولمبي).

بما يتعلق بالمفهوم اليهودي لعبارة ابن الله ورفض اليهود لهذا الادّعاء الذي يأخذ شكلاً مجازياً في مزامير داود 2: 7 (...قَالَ لِي: أَنْتَ ابْنِي. أَنَا الْيَوْمَ وَلَدْتُكَ)؛ فقد كان هذا الرفض نابعاً أساساً من اعتبار إسرائيل النبي ابن الله

١- ليف غوميليوف: في دوامة التاريخ النهاية والبداية ص 84-85.

٢- قير: المقصود به قورش الفارسي الذي دمر مملكة بابل واحتل بلاد الشام ومصر بعد سنة 635ق.م.

ولا ابن غيره، وعبارة (حسب عدد ملائكة الله) تصبح في التوراة (...حَسَبَ عَدَدِ بَنِي إِسْرَائِيل)[1]، وليصبح بذلك بني إسراءيل (ملائكة الله) (شعب الرب). فالمقصود هنا في هذا الرفض للبشارة المسيحية أن تتحول الأبوة الإلهية من إسرائيل إلى السيد المسيح (صلى الله علبه وسلم)، ليس إلا، في حين أن المستنيرين من المسيحيين والمسلمين يعتبرون عبارة ابن الله مجازية، ويرجعها الكثير منهم إلى الخلق الأول لآدم دون واسطة جنسية بالمعنى الإنساني، فهي أمر الله ونفخة من روحه. وهذا الاعتقاد لا يغير من كون ولادة السيد المسيح (صلى الله علبه وسلم) معجزة إلهية وآية للناس تبين لهم قدرة الله العظيمة وأمره (...كُن فَيَكُونُ)[2]، والتي لم يؤمن بها يهود ذلك العصر باتهامهم للسيدة العذراء بفعل الزنى (...إِنَّنَا لَمْ نُولَدْ مِنْ زِناً...)[3] (...أَبُونَا هُوَ إِبْرَاهِيمُ...)[4]

يقول أندريه نايتون في كتابه (الأصول الوثنية في المسيحية) بهذا الصدد:

(يقول ميللر باروز: إن في مخطوطات البحر الميت مقطعاً من سفر التثنية نقرأ فيه (حسب عدد ملائكة الله)[5]، والنسخة العربية تقول: (حسب عدد بني إسرائيل). غير أن هناك من يفسر أولاد الله هنا بمعنى الملائكة، وبالتالي فإن هذا يعني في نظر بعضهم أن المسيح كان رئيس الملائكة. وفي المقابل نجد أن شارل غينيبر قد جاء بفرضية جديدة تقول: (إن المسيح قدم نفسه على أساس أنه عبد الله، وإن كلمة (عبد) بالعبرية تعني (الخادم)، كما تعني (الطفل)؛ وربما كان ذلك وراء البلبلة حول عبارة (ابن الله) (التي كانت بالأصل تعني (عبد الله))[6].

١- العهد القديم سفر التثنية 32: 8.

٢- القرآن الكريم سورة البقرة الآية 117.

٣- العهد الجديد إنجيل يوحنا 8: 41.

٤- العهد الجديد إنجيل يوحنا 8: 39.

٥- اكتشفت هذه المخطوطات في مغارة قمران في الأربعينيات من القرن الماضي، وكشفت هذه الوثائق عن الكثير من التناقض والتغيير ضمن الرواية الكتابية التي بين أيدينا.

٦- أندريه نايتون (الأصول الوثنية في المسيحية من أجل الحقيقة) ص 38 ترجمة سميرة عزمي الزين 1991- منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية.